الفصل الثاني

التلميذ والتمدرس

مقدمة :

ينظر بعض المربين إلى التلميذ على أنه الشمس التي تدور حولها كل أجهزة التعليم وأنشطته تمثيلا بكوبرنيق في أن الشمس هي مركز الكون ومحور الكون ، وتدور حولها الكواكب . أي أن التلميذ هو مركز العملية التربوية. والواقع أن التلميذ رغم هذه الأهمية يذهب إلى المدرسة لا اختيار له في نوع المدرسة التي يلتحق بها ، ولا في الفصل الذي يضمه مع رفاقه ، ولا في المعلم الذي يتولى تعليمه ، ولا في البرنامج الذي يتعلمه . وكل طفل يأتي إلى المدرسة ولديه فكرة مسبقة عنها ، ولديه معلومات مبدئية عن معايير الصواب والخطأ ، والجمال والقبح ، والجيد والرديء ، والمرغوب والمرفوض . كما أن الأطفال لديهم أفكار عن المعلم الجيد . فهم يرون فيه أن يكون محافظا على النظام وعادلا في أحكامه وتقييمه للتلاميذ، وأن يكون جيدا في تدريسه ، وأن يكون صديقا لهم . ويواجه الطفل في المدرسة أيضا بما يتوقعه المعلم من التلميذ " الشاطر " أو النبيه . ومن الطبيعي أن يكون هناك مجال لاختلاف هذه المعايير بين هؤلاء الأطفال تبعا لخلفيات أسرهم وبيئاتهم الثقافية والاجتماعية والدينية والاقتصادية . وقد يصل هذا الاختلاف إلى درجة التوتر والصراع . وتحاول المدرسة من جانبها أن تصهر هذه الاختلافات في بوتقة تحقق التوافق والانسجام بينها في إطار ثقافة عامة موحدة للجميع . وتحاول المدرسة أن تذهب إلى أبعد من هذا عندما تعمل على اكساب تلاميذها أذواقا رفيعة واهتمامات مفيدة في مجال تذوق الفن والموسيقى والرقص والغناء وممارسة الهوايات المحببة .

وتعمل المدرسة كجهاز للضبط الاجتماعي من خلال تنظيم سلوك التلاميذ. ذلك أن للمدرسة نظاما وقواعد يجب أن يلتزم بها جميع التلاميذ والمعلمين والعاملين فيها . وبالنسبة للتلاميذ الجدد عليهم أن يكيفوا أنفسهم لنظامها ، وأن يتكيفوا مع قواعدها حتى يتعودا عليها وتصبح عادية بالنسبة لهم . ولعل

هذا يفسر الشعور بالتوتر والاضطراب وعدم الارتياح والقلق الذي يشعر به التلميذ الجديد عند أول التحاقه بالمدرسة . ويصدق ذلك على المعلمين والعاملين أيضا . إن بكاء الطفل وصراخه وتمسكه بأمه ورفضه أن يتركها ليذهب إلى المدرسة لأول مرة يرجع إلى عدم معرفته بما يدور في المدرسة ، وجهله به . وعندما يصبح التلميذ على ألفة بالمدرسة يزول عنه التوتر ، ويصبح كل شيء مفهوما وواضحا له ، بل ومتوقعا . وتصبح هناك قاعدة عامة للجميع . ومع أنه قد توجد قاعدة ثقافية عامة يشارك فيها الجميع في المدرسة ، فمن النادر أن تكون ثقافة المدرسة قائمة على قيم عامة يشارك فيها التلاميذ والمعلمون . فكل مجموعة في الفصل لها قيمها الخاصة . بل إن هناك فرقا بين القيم والمعايير الرسمية وغير الرسمية . فالتلاميذ والمعلمون لهم معاييرهم التي يستخدمونها استخدامات مختلفة في مواقف مختلفة . وكذلك العاملون في المدرسة يستخدمون معايير مختلفة في مواقف مختلفة رسمية وغير رسمية . فعندما يزورهم أحد مثلا يستخدمون المعايير الرسمية . والمعلمون فيما بينهم في حجراتهم الخاصة غيرهم في تعاملهم مع الآباء أو التلاميذ، وسرعان ما يتعلم الجميع الفرق بين المثال والواقع في استخدام المعايير .

طقوس التمدرس :

للتمدرس طقوس معروفة مثل ارتداء التلاميذ الزي المدرسي ، ودق جرس الصباح ، ووقوف التلاميذ في طوابير في الفناء المدرسي لتحية العلم وترديد النشيد الوطني ، والسير إلى الفصول الدراسية في صفوف منتظمة ، ووقوفهم عند دخول المعلم لتحيته . وقد تبدو هذه الطقوس هامشية لكنها ضرورية لتضفي على المدرسة الصفة النظامية والاجتماعية كمؤسسة من مؤسسات المجتمع . كما أن ذلك يساعدها في التأثير على تلاميذها واكسابهم القيم التي تكافح عنها في تكوين الروح القومية والشعور بالولاء والانتماء للمجتمع .

نظام جلوس التلاميذ :

من المعروف أن النظام التقليدي لجلوس التلاميذ في الفصل يعتمد على تنظيم الأدراج والمقاعد في صفوف منتظمة الواحد منها يتلو الآخر . ومن المفروض

أن تكون هذه الأدراج والمقاعد ثابتة لدرجة أنها قد تثبت بالأرض أحيانا ضمانا لعدم تحركها . ويجلس التلاميذ في مواجهة المعلم في انتباه للاستماع إليه والعمل بتوجيهاته .

وفي ظل هذا النظام يسهل على المعلم توجيه الشرح والتدريس لكل التلاميذ ، كما يسهل عليه مراقبتهم وملاحظتهم لأنه في موقع يستطيع أن يرى منه كل التلاميذ بوضوح . وهذا هو النظام السائد في مدارسنا العربية حتى الآن. وقد عدلت عن هذا النظام منذ سنوات طويلة كثير من الدول لاسيما المتقدمة منها على اعتبار أنه نظام معيب . ومن العيوب التي وجهت إليه أنه يحشد التلاميذ في الفصل ويحد من حركتهم ويجعل المعلم في موقف المسيطر والمتحكم في عملية التعليم والتعلم . فالمعلم هو الذي يتحدث ، وعلى التلاميذ أن يستمعوا . وقد ثبت من الدراسات التي أجريت في نظم التعليم المختلفة لاسيما في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا أن المعلم يأخذ معظم وقت الحصة لنفسه في الكلام . وقد يصل ذلك إلى ما يعادل ثلثي الوقت ، والثلث الباقي يشترك فيه التلاميذ . ويقضي المعلم هذا الوقت في ممارسة تأثيره المباشر على التلاميذ من حيث الشرح والتوضيح والتوجيه والضبط . وقد عبرت المربية المعروفة " ماريا منتسوري " عن هذا الأسلوب في تنظيم الفصول الدراسية كما كان في عصرها بقولها (Montessori : p. 80) " يجلس الأطفال ساعة تلو الأخرى بلا حراك يستمعون . وعندما يطالبون برسم شيئ عليهم أن يقلدوا بالضبط نفس الشكل المرسوم أمامهم ، ولا يتحركون إلا طاعة لأوامر شخص آخر . إن تقدير شخصياتهم يقوم على أساس معيار واحد فقط هو الطاعة السلبية أو العمياء " . ونتيجة للهجوم والاعتراض على مثل هذا النظام التقليدي لجلوس التلاميذ في الفصل ظهر نظام آخر بديل يعتمد على تنظيم الفصل في مجموعات صغيرة من التلاميذ حول ترابيزات مستديرة أو مربعة توزع في مختلف أماكنه . كما توضع في الحجرة بعض قطع الأثاث الخاصة بها ، ورفوف الأدراج ، والدواليب التي تحتوي على خزنة ، أو مكان خاص لكل تلميذ يحفظ فيه أدواته . والفرق واضح بين هذه التجهيزات الحديثة للطفل، والتجهيزات القديمة التقليدية التي تعتمد على مقعد مزدوج من

الخشب يجلس عليه تلميذان ، ودرج مزدوج من الخشب أيضا مفرغ من الداخل ليضع فيه التلميذ أدواته في الخانة الخاصة به ، وله غطاء يستخدمه بعد قفله في الكتابة عليه أو وضع كتبه وأدواته . وهي الصورة السائدة في مدارسنا العربية حتى اليوم .

ويعتبر تنظيم جلوس التلاميذ في مجموعات تضم ما بين ٥ ـ ١٠ تلميذا ، والعمل أيضا في مجموعات اتجاها واضحا في الوقت الراهن للمدرسة الابتدائية الجيدة في الدول المتقدمة . وبالنسبة لدولة مثل بريطانيا نجد أن تقرير بلاودن Plowden Report (١٩٦٧) الشهير عن التعليم الابتدائي قد نادى بهذا الاتجاه وعمل على الإسراع بتطبيقه في المدارس الابتدائية البريطانية . والأساس الفلسفي الذي يستند إليه هذا الاتجاه هو توفير نوع من التربية التقدمية المتمركزة حول الطفل . وأهم معالمها التفاعل الذي يحدث بين المجموعات الصغيرة من التلاميذ وبين المعلم ، بل وبين أفراد المجموعات نفسها في غياب المعلم . ذلك أن المجموعة الصغيرة يمكنها أن تستثير وتحفز النمو اللغوي والعقلي للطفل . كما أن الأطفال أكثر قدرة على توضيح المعاني لأنفسهم بشرحها للآخرين لأن الصبي عن الصبي ألقن كما يقول ابن سينا. وتشير التقارير بصفة خاصة إلى أهمية المجموعات الصغيرة للتلاميذ في تعلم العلوم والرياضيات . فقد ثبت من بعض الدراسات أن المجموعة الصغيرة من أطفال المدرسة الابتدائية لديها القدرة على تخطيط ومتابعة الاستقصاءات العلمية والرياضية . (Boydell : p. 91)

ومن الطبيعي في ظل هذا الترتيب لمجموعات التلاميذ في الفصل أن تختلف استراتيجية التدريس عما هذ عليه عادة في الفصل العادي . فالمعلم في ظل النظام الجديد قد يقدم للفصل توجيهات عامة ، إلا أن معظم وقته واهتمامه موزع بين مجموعات التلاميذ . فلكل مجموعة عملها المشترك ، أو لكل تلميذ عمله الخاص به . وهو ـ أي المعلم ـ ينتقل من مجموعة لأخرى ليتابع سير التلاميذ في عملية التعلم . ومن المتوقع ألا يشعر التلاميذ بالملل والسأم في ظل هذا النظام ، على عكس ما هو متوقع في ظل النظام التقليدي .

والواقع أنه على الرغم من كل الميزات السابقة لنظام المجموعات في

الفصول الدراسية ، فإنه يصعب الحكم على مدى فعالية تطبيقه . وقد يكون أكثر مناسبة للأطفال الصغار في دور الحضانة ورياض الأطفال ، وربما في السنتين الأوليين من التعليم الابتدائي . فالتجربة البريطانية مريره في انخفاض مستوى تلاميذ المرحلة الابتدائية إلى درجة تثير فزع السلطات التعليمية . كما أنه ثبت في حالات كثيرة أن المعلمين يستخدمون نفس أساليب التدريس القديمة مع النظام الجديد للمجموعات . يضاف إلى ذلك أنه مكلف بالنسبة للدول النامية ومنها البلاد العربية . ولذلك ينبغي عليها أن تفكر مليا قبل الإقدام على تنفيذه . وقد يكون من المعقول تنفيذه على نطاق تجريبي في المراحل الأولى من تعليم الأطفال كما أشرنا .

تقسيم التلاميذ :

درج المسئولون عن إدارة التعليم وتنظيمه على تقسيم التلاميذ إلى مجموعات في فصول يتراوح عددها ما بين عشرين وأربعين تلميذا تقريبا في كل فصل . وهو ما يعرف عند أهل الاختصاص بالتوزيع غير المتجانس تمييزا له عن التوزيع المتجانس على أساس القدرات ومستوى التحصيل . والتوزيع غير المتجانس مريح للممارسين التربويين لأنه سهل ولا يحتاج إلى إجراءات وترتيبات كثيرة . بيد أن هذا النوع من التوزيع يفترض أن كل التلاميذ سواء في أمر تعليمهم . وليس الأمر كذلك في حقيقته . فمن قام منا بتعليم الصغار يعرف أنهم يختلفون في قدراتهم واستعداداتهم وذكائهم وميولهم واهتماماتهم وشخصياتهم وطبائعهم ، وهم بالتالي يختلفون في احتياجاتهم التعليمية . وبعض هذه الاختلافات يرجع إلى أساس وراثي مثل بعض الصفات الشخصية والجسمية والعقلية والنفسية . وبعضها يرجع إلى أساس بيني من خلال تجارب الطفولة والوسط العائلي .

آداب التمدرس :

للتمدرس آداب وأخلاق ينبغي أن يراعيها المعلم والمتعلم على السواء . أما بالنسبة لآداب المتعلم فيقول الراغب الأصفهاني في كلامه عما يجب على المتعلم أن يتحراه ويراعيه إن عليه أن يراعي ثلاثة أحوال :

أولها : أن يطهر نفسه من ردئ الأخلاق ، كما تطهر الأرض للبذر من خبائث النبات لأن الطاهر لا يسكن إلا بيتا طاهرا .

ثانيها : أن يقلل من الاشغال الدنيوية ليتوفر فراغه على العلوم الحقيقية .وقد قال تعالى « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » .

ثالثها : ألا يتكبر على معلمه ولا على العلم . فالعلم خراب للمتعالي كالسيل خراب للمكان العالي . ولهذا قيل : العلم لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلك . فإنك من إعطائه إياك بعضه على خطر . . وحق من هو بصدد تعلم علم من العلوم ألا يصغى إلى الاختلافات المشككة والشبة الملتبسة ما لم يتهذب في قوانين ما هو بصدده لئلا تتولد له شبهة تصرفه عن التوجه ، فيؤدي به ذلك إلى الإرتداد . وكذا من حق المتعلم إذا وجد معلما ناصحا أن يأتمر له ، ولا يتأمر عليه ، ولا يراده فيما ليس بصدد تعلمه ، ولم يبلغ منزلة معرفته بعد » (الأصفهاني : الذريعة إلى أحكام الشريعة ص ص ١٤٩ ـ ١٥١) ويقول الزرنوجي : " وينبغي لطالب العلم أن يحتد من الأخلاق الذميمة فإنها كلاب معنوية أي مؤذية . وعليه أن يبتعد عن الكسل فإنه شؤم وآفة عظيمة . وقد قال الشاعر :

فلم أرَى للكسالى الحظ يعطي . . . سوى ندم وحرمان الأماني

أما بالنسبة لآداب وأخلاق المعلم فأهمها :

١ ـ أن يجري متعلميه منه مجرى بنيه فيعلمهم بالشفقة والحنان ، فإنه في الحقيقة أشرف من الأبوين (الأصفهاني : المرجع السابق، ص ١٥٢) وقد نبه النبي ﷺ إلى ذلك بقوله " إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم".

٢ ـ أن يحرص على تعليم غيره لأن أي عالم ما لم يكن له من يفيده العلم صار كعاقر لا نسل له فيموت ذكره بموته . ومتى استفيد بعلمه كان في الدنيا موجودا وإن فقد شخصه كما قال أمير المؤمنين : " العلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة " .

٣ - أن يوجه المتعلم إلى الفضيلة والابتعاد عن الرذيلة بلطف في المقال وتعريض في الخطاب . والتعريض والتلميح أبلغ من التصريح لوجوه :

أولها : أن النفس الفاضلة تميل إلى التعريض والعلم شغفا باستخراج معناه بالفكر . ولذلك قيل : رب تلميح أبلغ من تصريح .

ثانيها : أن التعريض أو التلميح لا تنتهك به سجوف (أستار) الهيئة ولا يرتفع به ستر الحشمة .

ثالثها : أن للتصريح وجها واحدا وعبارة واحدة ، وللتعريض والتلميح وجوه وعبارات مختلفة ، فمن هنا يكون أبلغ .

رابعها : أن صريح النهي داع إلى الإغراء ، ولذلك قيل إن اللوم إغراء . (المرجع السابق : ص ١٥٣) . وقد قال الشاعر :

دع عنك لومي ... فإن اللوم إغراء .

آداب النظام في الفصل :

هناك آداب عامة معروفة تحكم النظام في الفصل وسير العمل في حجرة الدراسة . وتكاد تكون هذه الآداب مشتركة بين نظم التعليم المختلفة في بلاد العالم المتقدم والنامي على السواء . وهي آداب معروفة ومتبعة في مدارسنا العربية . وعلى كل تلميذ أن يتعلم هذه الآداب ، وأن يسلك وفقا لها . وهو يتعلمها عادة منذ بداية التحاقه بالمدرسة . ولكن يجب أن يذكر بها دائما . وكثير من المخالفات وسوء السلوك في حجرة الدراسة تنجم عادة عن جهل التلميذ بهذه الآداب . ومن هنا كان من الضروري أن يوضح المعلم لتلاميذه في أول العام الدراسي آداب النظام في الفصل الذي يحددها لهم . ومن أهم هذه الآداب :

١ - أن يدخل التلميذ إلى الفصل قبل بدء الدرس في هدوء ونظام .

٢ - أن يجلس في مقعده ويعد نفسه للدرس .

٣ - أن يقف لتحية المعلم عند دخوله الفصل .

٤ - أن يتابع باهتمام ما يقوله المعلم .

٥ - أن يرفع يده للاستئذان عند طلب الكلام أو الاستفسار عن شيئ .

٦ - أن يتحدث إلى المعلم مباشرة عندما يؤذن له .

٧ - أن يلزم الصمت والهدوء أثناء حديث المعلم .

٨ - ألا يقاطع المعلم أو أي زميل له في الكلام .

٩ - أن يفعل ما يطالبه به المعلم .

١٠- ألا يتحرك في الفصل بدون إذن أو سبب قوي .

١١- ألا يستسلم للنوم .

١٢- ألا يأكل أو يمضغ شيئا أو يسرح شعره (أو شعرها) أو ما شابه ذلك أثناء الدرس .

١٣- أن يحضر معه إلى الفصل ما يلزم للدرس من كتب وكراسات وأقلام ومساطر وغيرها .

١٤- أن يكتب ما يدونه المعلم على السبورة من مذكرات وتلخيصات أو ما يمليه عليه المعلم .

١٥- أن يتحلى بالأدب وحسن السلوك ، وألا يحدث ما يخل بالنظام في الفصل مثل التحدث مع غيره أو الشغب أو الشجار أو مضايقة المعلم أو زملائه .

١٦- أن يحرص دائما على التعلم في الفصل وأن يشارك بإيجابية فيه .

١٧- أن يقف احتراما للمعلم عند انتهاء الدرس وخروج المعلم من الفصل .

١٨- ألا يسئ السلوك وينتهز الفرصة للعنف والشغب والإخلال بالنظام في فترات الراحة بين الحصص أو الدروس .

ويمكن أن يختار المعلم من هذه القواعد أو يضيف إليها ما يراه مناسبا له . ويمكن كتابة هذه القواعد على ظهر غلاف كراسات التلاميذ تذكيرا لهم كما كان يحدث أحيانا في كتابة بعض قواعد النظام والنظافة .

بين تربية الإنسان وتدريب الحيوان :

من الأساليب التي يتبعها بعض المعلمين في تعليم آداب السلوك وحفظ النظام في الفصل أسلوب الأمر والنهي . وقد يصاحب ذلك نغمة صوت صارمة .

وقد نتذكر أيام طفولتنا في المدارس عندما كان يطالب المعلم التلميذ بقوله : "رَبّع إيديك " ، " بُصْ قدامك " ، " ممنوع الكلام " ، قيام ، جلوس ، انصراف ، وما شابه ذلك . وقد تستخدم معلمة الفصل نفس الأسلوب في تعليم الأطفال الصغار كأن تخاطب الطفل بقولها : "حط إيدك على رأسك ، أو على عينيك ، أو أنفك ، أو حرك إيدك اليمين أو الشمال ، أو بص وراك ، أو قدامك " ، وما شابه ذلك من الأساليب التقليدية المعروفة . وهذا الأسلوب هو نفس الأسلوب الذي يستخدم في تدريب الحيوان مثل تدريب الحصان أو القرد أو الكلب على أداء أعمال معينة. وهو أسلوب يعتمد على تنفيذ الأمر بدون أي تفكير . وتصبح المسألة آلية ميكانيكية بحتة على أساس ما يعرف في علم النفس بعلاقة المثير والاستجابة . والأطفال الذين يخضعون لهذا الأسلوب من التعامل يعجزون عادة عن القيام بأي تعليم مستقل . وإنما يعتمدون دائما على التلقين على طريقة الببغاوات . ولا شك في أننا ننشد من تعليم أبنائنا ألا يكونوا ببغاوات أو قروداً أو كلابا . فهذا لا يليق ببشر . ومن هنا كان على المعلم أن يتخلص من هذا الأسلوب في تعليم الأطفال ، وأن يعاملهم كأفراد أذكياء . وقد أشرنا في مكان آخر من هذا الكتاب إلى أن على المعلم ألا يستهين بذكاء الطفل الصغير . وهذا يقتضي من المعلم النظر إلى الطفل كإنسان ، وأن يدرك أن أسلوب تربية الإنسان يختلف عن أسلوب تدريب الحيوان . والمدرس الجيد هو الذي يوفر للطفل القيام بالنشاط الإيجابي اللازم لتعمله ، وفي نفس الوقت يتحمل مسئولية سلوكه ونتيجة تصرفه.

الوقاية خير من العلاج :

من الأساليب الفعالة في التعامل مع سوء الأدب والسلوك في الفصل أو الخروج على نظامه أسلوب " الوقاية " بمعنى العمل على منع حدوث السلوك قبل وقوعه . ويمكن عمل ذلك بتذكير التلاميذ دائما بالتحلي بالأدب وحسن الخلق ، وبمعاملتهم دائما معاملة كريمة ، وبالتأكد من معرفتهم لقواعد النظام في الفصل ، وتصحيحهم دائما كلما خرجوا عنها .

التلميذ وعملية النمو :

إن الكائن البشري لا يصبح إنسانا إلا بالتربية من خلال عمليات النمو ، وكثيرا ما يردد المربون على ألسنتهم عبارة " التربية عملية نمو " بدون أن يعطوها حقها من التحليل الذي تستحقه . وقد أصبحت هذه العبارة مستهلكة ولا تثير شغف المربين رغم أنها تمثل لب عملية التربية . ذلك أن التربية كعملية نمو لا تعنى صب الطفل في قالب لتشكيله . فهذا يتنافى مع عملية النمو التي هي تفتح من الداخل لا تشكيل من الخارج . وبهذا المعنى الأخير نجد كثيرا من فلاسفة التربية قد تناولوا النمو في مؤلفاتهم . منهم الفيلسوف الفرنسي " جان جاك روسو " في كتابه " إميل " (١٧٦٢) ، و" فروبل " في كتابه " تربية الرجل " (١٨٢٦) ، و" جون ديوي " في كتابه المشهور " الديمقراطية والتربية (١٩١٦)، وكتابه الآخر " الخبرة والتربية " (١٩٣٨) . كما نجد ذلك عند علماء النفس الذين تحرثوا عن " نمو الطفل ، منهم " جيزل " وزملاؤه في كتاب " الوليد والطفل في ثقافة اليوم " (١٩٤٣) ،و " الطفل من سن الخامسة إلى العاشرة " (١٩٤٦). وهناك كتب أخرى حديثة يعييها الحصر ، منها على سبيل المثال كتابات " برونر " .

ومن النقاط الهامة التي يجب ألا تغيب عن بالنا ونحن نتحدث عن التربية كعملية نمو ، ارتباط النمو بالنضج في إطار عملية التعلم . وهناك كثير من الأدلة الواضحة على ذلك . فمن العبث مثلا تعليم الطفل حديث الولادة أن يتكلم أو يمشي قبل اكتمال نموه الجسمي الذي يمكنه من عمل ذلك . فالتعلم يقتضي النضج . والنضج نمو جسمي وعقلي ونفسي . ويرتبط بمفهوم النمو أيضا مفهوم الاستعداد . وهو يعني عدم الإسراع المتعمد بعملية النمو قبل أوانها ، وإنمايجب أن يتخير وقت تفتحها . فلحصد الزرع إبّان كما يقال ، وهناك علامات ومؤشرات للاستعداد ينبغي على الآباء والمعلمين استغلالها في الوقت المناسب . وهناك أيضا مفهوم الاهتمام أو الميل الذي يرتبط بمفهومي الاستعداد والنضج . وتلعب البيئة دوراً رئيسيا في تنميته . فتعليم القراءة على سبيل المثال وهو من أهم الأدوار التي يجب أن تقوم بها المدرسة الابتدائية لاسيما في السنوات الأولى

يتطلب توفر الجوانب الثلاثة : النضج والاستعداد والاهتمام . وإذا كان على المربي أن ينتظر حتى يحدث النضج وتظهر بوادر الاستعداد ، فإنه لن ينتظر حتى يظهر الاهتمام على الطفل . بل يجب أن يوفر الظروف البيئية التي تحفز وتنمي اهتمام الطفل لتعلم القراءة . وهذا ما يجب أن يحدث في رياض الأطفال . ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا توجد فروق كبيرة بين الأطفال في بدء تعلمهم للقراءة . فمن الأسباب الرئيسية لهذه الفروق اختلاف بيئات الأطفال التي نشأوا فيها بين بيئة محفزة مساعدة ، وأخرى غير محفزة وغير مساعدة . ومن الخطأ الانتظار والتسويف في تعليم القراءة بحجة أن اهتمام الطفل لم يظهر بعد . فهذا هو النقد الذي وجه إلى " جان جاك روسو " في تعليمه " إميل " القراءة ، إذ ترك تعليمها حتى سن الثانية عشرة .

ونخلص من عرضنا السابق إلى أن التربية كعملية نمو ترتبط ارتباطا مباشرا بمفهوم النضج والاستعداد والاهتمام . وهي المفاهيم الأساسية التي تشكل البنية الأساسية لتعليم التلميذ في المراحل التعليمية المختلفة . ويتوجب على المعلم أن يضعها دائما في اعتباره كموجهات لعملية التعليم والتعلم في حجرة الدراسة .

اللغة والنمو المعرفي :

خلال السنوات الماضية اهتم بعض الباحثين بالدور الذي تلعبه اللغة في النمو المعرفي للطفل . وفي هذا المجال برز الاهتمام بأعمال" ڤيجوتسكي " Vygot-sky الروسي الذي توفي عام ١٩٣٤م وعمره ٣٧ عاما . وظلت أعماله غير منشورة أو مترجمة لسنوات طويلة لأن آراءه لم ترحب بها السلطات السوڤيتية آنذاك . وقد نظر إلى نمو الطفل على أنه كامن ، وأنه يمكن إيقاظه أو استثارته بالتفاعل . واللغة هي مفتاح هذا التفاعل . ويحدد " ڤيجوتسكي " مجالات النمو القريب للطفل بأنها الوظائف التي لم تنضج بعد ، وإنما هي في طور النضج، أو التي ستنضج في الغد ، وهي حاليا في مرحلة الجنين . هذه الوظائف يمكن أن يطلق عليها براعم النمو أكثر من كونها ثمار النمو (Vygotsky : 1978) . والمعلم الناجح هو المعلم الذي يولي اهتمامه لهذه الوظائف لأن التلاميذ سيكونون

في حاجة لمساعدته . وينبغي أن نشير إلى أن كلام ڤيجوتسكي عن هذه الوظائف يذكرنا بكلام "هافيجهرست " عن واجبات النمو .

ومن المعروف أن اللغة ترتبط بالتفكير ، وأن النمو اللغوي ضروري لنمو التفكير عند الطفل . وقد كشفت الدراسات التي قام بها عالم الاجتماع الأمريكي " ديفيز " Davis أن تأخرالنمو اللفظي شائع بين الأطفال التوائم ، وفسر ذلك بأن التوأمين يميلان إلى اتصال كل منهما بالآخر بطريقة غير لفظية مما يقلل من حاجتهما إلى الاتصال اللفظي بالكبار . كما أن بعض الآباء يهتم بتعليم أبنائهم كيف يعبرون لفظيا عن أنفسهم ، ومن ثم يستطيع الطفل أن ينمي قدرته اللفظية، وأن يجد سعادة في استخدام اللفظ والتعبير اللفظي . وعلى العكس من ذلك نجد بعض الآباء لا يهتم بذلك ، ومن ثم يتأخر نمو المحصول اللغوي للطفل . ويكون قاموسه اللغوي محدودا بالنسبة لأقرانه . وهكذا يتحدد مستوى تفكيره . ولاشك في أن كثيرا من المشكلات التي يواجهها الطفل في الفصل المدرسي يكون أساسها هذه التنشة الخاطئة لأن اللغة التي يستخدمها المدرس ويتعامل بها معه لامعنى لها أو محدودة المعنى . وقد يؤدي ذلك إلى انعدام الاتصال بين المدرس والطفل . ومن هنا ينبغي على الآباء أن ينتبهوا إلى هذه الحقائق في تربية أبنائهم ، وأن يكونوا على وعي بأهمية استثارة الطفل منذ أيامه الأولى إلى التعبير اللفظي عن نفسه . وألا يدخروا وسعا في حث الطفل وتشجيعه على الكلام ، وعلى تنمية مفرداته اللغوية وقاموسه اللغوي .

الذاكرة والتذكر :

يقول علماء النفس إن الإنسان العادي لا يستخدم أكثر من ١٠٪ من قدرته العقلية على التذكر . ويضيع الجزء الكبير المتبقي (٩٠٪) نتيجة تجاهل القوانين الطبيعية لعملية التذكر والتي تشكل في مجموعها نظام الذاكرة . هذه القوانين تتعلق بثلاثة جوانب للذاكرة هي : الانطباع والتكرار والترابط أو الارتباط. ولكي يحسن الإنسان عملية التذكر عليه أن يراعي هذه القوانين ويتبعها . وأول خطوة هي أن يركز كل انتباهه على الشيئ موضوع التذكر ، ولا ينشغل بشئ غيره حتى ينطبع جيدا في ذاكرته . إن كثيرا من الأمور التي ننساها

سببها تجاهل تركيز الانتباه . فنسيان مكان وضع المفاتيح أو النظارة أو المحفظة أو الساعة أو ماشابه ذلك هي من الأمور التي ينطبق عليها عدم تركيز الانتباه . وقد ينسى الفرد ما إذا كان قد أغلق الباب أو لا ، أو ما إذا كان قد أغلق صمام الغاز أم لا ، وما شابه ذلك من الأمور . وذلك لأنه لم يركز انتباهه وقت القيام بالعمل ، وإنما كان يفكر في شيئ آخر . ومن هنا يختلط عليه الحابل بالنابل بعد فترة ، عندما يكون قد خرج من المنزل أوغادر المكان أو تركه إلى مكان آخر . ومن هذا نخلص إلى القاعدة الأولى في تحسين القدرة على التذكر وهي التركيز الكامل لبعض الوقت على موضوع التذكر .

القانون الثاني هو التكرار : ونحن نقول في المثل " التكرار يعلم الحمار " فإذا كان الحيوان يتعلم الشيئ بالتكرار ، فمن باب أولى الإنسان . وكثير من الناس يحفظون القرآن الكريم بكامله عن ظهر قلب بالتكرار المستمر . فتكرار الشيئ يساعد على تثبيته في الذاكرة . ولذلك يجب أن يحرص الفرد على تكرار تذكر ما يريد أن يحتفظ به في ذاكرته .

القانون الثالث هو قانون الترابط أو الارتباط . وهو قانون معروف في علم النفس التعليمي . وهو يتعلق بتعليم الشيئ في ارتباطه بشئ آخر مثل ارتباط الكلمة بالصورة في تعليم القراءة للمبتدئين . فرؤية الصورة تستدعي تذكر الكلمة الدالة عليها . ولذلك فإن الإنسان إذا أراد تذكر شيئ فعليه أولا أن يركز انتباهه عليه ، ثم يكرر تذكره من حين لآخر ، وعليه أيضا أن يعقد ارتباطات كثيرة مع موضوع التذكر * .

العمليات العقلية :

هناك أنواع من العمليات العقلية التي يعتمد عليها التلميذ في الفصل وترتبط بالذاكرة . فهناك عملية الاستدعاء وهي من أكثر أنواع العمليات استعمالا في الفصل . وذلك عندمايطالب المعلم التلميذ بالإجابة عن سؤال أو

---

* لتفصيل الكلام عن موضوع الذاكرة أرجع إلى كتاب لنفس المؤلف بعنوان : الاتجاهات الحديثة لتعليم الكبار . عالم الكتب ، القاهرة ،١٩٩٧ .

كتابة شيئ ، أوعمل شيئ لاختبار مدى تعلمه أو مهارته . ويعتمد التلميذ في استجابته للمعلم على عملية الاستدعاء . وهناك عملية التعرف وهي تختلف عن النوع السابق من العمليات . فالمعلم عندما يطالب التلميذ بقراءة نص فإنه يتعرف على الكلمات التي تعلمها من قبل ، أما تلك التي لم يتعلمها فلن يتعرف عليها كما ينبغي . وهناك نوع ثالث من العمليات هو إعادة التعلم . فعندما ينسى التلميذ بعض تفصيلات ماتعلمه ، فإنه يعود إلى تعلمه مرة ثانية.

أنواع التفكير :

التفكير مهم لعمل التلميذ . وهو من أهم الأدوات في تحصيل العلم واكتشاف مكنونه . وهناك عدة أنواع من التفكير من أهمها :

١ ـ التفكير الإدراكي : وهونوع من التفكير غير الموجه إلى هدف ما ، وهو لا يمثل مستوى عاليا من التفكير . ويتأثر إلى حد كبير بالبيئة . وهو يتضمن الاختيار من مجموعة كبيرة من البدائل المتاحة من التفكير . فالإنسان عندماينظر إلى منظر ما قد يدرك منه أشياء معينة ترتبط بخبرته وبيئته .

٢ ـ التفكير الارتباطي : وهو التفكير الذي يعتمد على ارتباط شيئ بشئ . فعندما يرى الإنسان سفينة فإنه يفكر في البحر والاستحمام أو التصيف أو صيد السمك وما شابه ذلك . وهو يرتبط بخبرة الفرد الماضية وما يتذكره منها .

وهناك أنواع أخرى من التفكير الاستقرائي والاستدلالي ، وتفكير حل المشكلات ، والتفكير النقدي والابتكاري .

التمدرس ووقت الفراغ :

من الاعتبارات الهامة في نظر بعض المربين ما يصنعه الفرد خلال ساعات لهوه وفراغه ، إلى جانب ما يعمله خلال ساعات عمله . وإذا لم يحسن الفرد استغلال وقت الفراغ بطريقة مفيدة ، فقد يترتب عليه ضعف النسيج الاجتماعي للأمة لاسيما إذا استغل وقت الفراغ في أنشطة الرذيلة والفساد والانحلال الخلقي ولذا يجب أن تولد المدرسة ونظام تمدرسها في نفوس الشباب اهتمامات مفيدة في شغل وقت الفراغ عن طريق هوايات مثل الرسم والتصوير والتمثيل والموسيقى

والغناء والأشغال اليدوية وممارسة الرياضة البدنية . وهذا يتطلب توفير الأندية الثقافية والرياضية وحمامات السباحة ومراكز الترفيه المفيد وساحات اللعب وما شابه ذلك .

تقاعس الأجيال :

لا شك في أن التعليم يعمل على خلق القيادات والزعماء وتكوينها . وهؤلاء بدورهم لهم مسئولية كبيرة ودور هام في تحول المجتمع ودفعه إلى الأمام . وكذلك كل متعلم وكل مواطن عليه مسئولية العمل من أجل بناء المجتمع وتقدمه. وأي تفريط في ذلك يترتب عليه عواقب وخيمة . ذلك أن من أخطر ما يتهدد المجتمعات على اختلاف شاكلتها في الشرق والغرب على السواء تقاعس أجيالها وعدم قيامهم بمسئولياتهم كاملة ، وترك بعض هذه المسئوليات للأجيال اللاحقة . وهذا يعتبر دين المتأخر على المتقدم أو اللاحق على السابق . ومن هنا تشقى بعض الأجيال وتعاني أكثر من غيرها . والجيل الواعي هو الذي يبني للأجيال القادمة ، ويكون من حظ هذه الأجيال وجود أجيال سابقة تركت لها من القرش الأبيض ما ينفعها في اليوم الأسود . ومن هنا كان من الضروري على كل جيل في كل أمة في كل زمان أن يعي مسئولياته جيدا ، وأن ينهض للقيام بها على أحسن وجه . وهذا يعني بالنسبة لنظام التمدرس أن يكون فعالا في تكوين التلاميذ كمواطنين صالحين ، ومؤثرا في استنهاض هممهم للعمل على رفعة المجتمع ورقيه .

التعليم والتقدم الاجتماعي :

أشار أحمد أمين وزميله أمين مرسي قنديل في كتابهما عن الأخلاق إلى فضل التعليم وأثره في إحداث التقدم الاجتماعي للدول . وفي ذلك يقولان (ص ٦٠) : " وأفضل الأمثلة لأثر التعليم في تغيير أحوال الشعب والسمو به هي الدانمراقة (الدانمارك) . فبالتعليم وطرقه الجديدة تحولت هذه البلاد من مملكة فقيرة قليلة الموارد إلى أمة زراعية سعيدة ينعم أهلها برخاء عظيم ، وبثقافة واسعة " . وقد تأكد هذا المعنى في تقارير اليونسكو بعد ذلك بسنوات طويلة . كما تأكد في الكتابات التربوية الأخرى .